الالتفات في النصف الأول من القرآن الكريم

أ(ة).برقلاح إيمان
جامعة منتوري – قسنطينة

ملخص:

يعد الالتفات فنا من فنون البلاغة العربية ، وأسلوبا من أساليبها ، وهو في اللغة " مأخوذ من الفعل'لفت'، وهو يدل على الليّ و صرف الشيء عن جهته المستقيمة ، ومنه لفتُّ الشيء لويته، و لفتُّ فلانا عن رأيه صرفته ، ولفتَ وجهه عن القوم صرفه ، والتفت التفاتا والتفت أكثر منه ، و تلفتّ إلى الشيء والتفت إليه صرف وجهه إليه ، و التفت عنه أعرض ".

Abstract:

'Iltifet' is an art of Arabic eloquence, and one of its methods, is indicative of the saree and divert the thing from its straight way and told him to draw the thing I twisted him, so he felt spent, and left his face on a purely folk, and attention turned and turned over, and draw to the thing and exchange mechanism turned his face, and turned his view.

مقدمة عامة:

لقد ورد الالتفات في القرآن الكريم في ثلاث مواضع ، لم يخرج فيها عن معناه اللغوي الذي تقدم ذكره وهو : الصرف من جهة إلى أخرى. والمواضع هي في قوله تعالى:

- ﴿ **قالوا أجئتنا لتلفتنا عمّا وجدنا عليه آباءنا و تكون لكما الكبرياء في الأرض و ما نحن لكما بمؤمنين**﴾ [1].

-﴿ **قالوا يا لوط إنّا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل و لا يلتفت منكم أحد إلاّ امرأتك أنّه مصيبها ما أصابهم إنّ موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب**﴾ [2] .

-﴿**وأتيناك بالحق وإنّا لصادقون * فأسر بأهلك بقطع من الليل واتّبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون**﴾[3].

أمّا في الحديث الشريف فكان وروده في 315 موضع ، و بالمعنى اللغوي نفسه فمن ذلك ما جاء في صحيح البخاري في باب الالتفات في الصلاة عن عائشة قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الالتفات في الصلاة فقال :"هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد "[4] .

---

[1] – سورة يونس ، الآية : 78 .

[2]– سورة هود ، الآية : 81.

[3] – سورة الحجر، الآيتان: 64 ، 65.

[4] – أبو عبد الله ، الجعفي ، البخاري . صحيح البخاري .المطبعة العامرة ، القاهرة . 1315 هـ . كتاب الآذان . رقم الحديث : 709.

أما اصطلاحا فهو عند البلاغيين التعبير عن المعنى بطريق من الطرق الثلاثة : التكلم و الخطاب و الغيبة وهو يعني هنا التحول من أسلوب في الكلام إلى آخر يخالف الأول ، أي هو "الانتقال في الكلام من وضع إلى وضع أو من حالة إلى أخرى ، كأن ينتقل الكلام من خطاب الحاضر إلى الغائب ، و من خطاب الغائب إلى الحاضر ، و من خطاب المتكلم إلى المخاطب ، و من المخاطب إلى الغائب .... إلى غير ذلك من صيغ الانتقال التي تعني التحول من صيغة إلى أخرى "[1].

و فيما يلي سنقوم بدراسة استقرائية تحليلية لبعض مواضع الالتفات في القرآن الكريم ، من سورة الفاتحة إلى سورة الكهف ، تتحدث في مجملها حول نقل الكلام من الخطاب و الغيبة و التكلم ثلاثتها ، ينقل كل واحد منها إلى الأخر بعد ذكر الأول ، ثمّ الانتقال منه إلى الثاني ، حيث سنتحدث في العنصر الأول عن الالتفات بين الغيبة و الخطاب ، أما الثاني فعن الالتفات بين التكلم والغيبة ، أما الثالث فعن الالتفات بين التكلم والخطاب .

1- الالتفات بين الغيبة و الخطاب : و يمكننا تقسيمه إل قسمين :

أ - الالتفات من الغيبة إلى الخطاب :

هذا الأسلوب يأتي في مقدمة الأساليب التي نصّ عليها الزمخشري ، وقد مثّل له بقوله تعالى : ﴿ **مالك يوم الدّين إيّاك نعبد وإيّاك نستعين** ....﴾[2]، فقد التفت عن الغيبة ، وهي: (مالك يوم الدين) إلى الخطاب وهو:

[1] – أحمد، مطلوب. مصطلحات النقد العربي. مكتبة لبنان، بيروت، لبنان.2001م . ص: 102 .

[2] – سورة الفاتحة ، الآيتان : 4 ، 5.

(إيّاك نعبد وإيّاك نستعين) ، وكان مقتضى الظاهر وتماشيا مع السياق السابق أن تكون الآية (الذي نعبده و نستعينه) ، أو إيّاه نعبد وإيّاه نستعين ، ولكن قد خرج الأسلوب من الغيبة إلى الخطاب ، و لهذا الخروج لطائف ربانية عظيمة ، يعجز البيان على حصرها إلى يوم الدين ، و قد كتب فيها كثير من المفسرين و علماء البلاغة و لكنها فوق كل ما قيل و يقال ، و ما جهود العلماء الأجلاء إلاّ محاولات جليلة للوقوف على النزر اليسير لبعض جوانب إعجازها ، و على سبيل المثال لا الحصر، نورد رأي **الزمخشري** القائل : " وممّا اختص به هذا الموضع أنّه لما ذكر الحقيق – المستحق– بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات العظام ، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء , وغايته الخضوع والاستعانة في المهمات ، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات فقيل : (إيّاك يا من هذه صفاته ، نخص بالعبادة و الاستعانة ، ولا نعبد غيرك و لا نستعينه يكون الخطاب أدل على أن العبادة له ، ذلك المتميز الذي لا تحق العبادة إلا به) . "[1]

و قيل إنما اختير للحمد الغيبة ، و للعبادة الخطاب ، للإشارة إلى أنّ الحمد دون العبادة في الرتبة ، فإنّك تحمد نظيرك و لا تعبده ، إذ الإنسان يحمد من لا يعبده ، و لا يعبد من لا يحمد ، فلمّا كان ذلك استعمل لفظ (الحمد) لتوسطه مع الغيبة في الخبر ، فقال : " الحمد لله"، و لم يقل : " الحمد لك " ، و لفظ (العبادة) مع الخطاب فقال : "إيّاك نعبد " ، ينسب إلى العظيم

[1]– محمود بن عمر أبو القاسم الزمخشري . الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل دار المعرفة بيروت. الجزء الأول .ص:63 ، 64.

من حال المخاطبة و المواجهة ، ما هو أعلى رتبة ، و ذلك على طريقة التأديب .[1]

و قيل : أن سرّ الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، هو التنبيه على أنّ مبتدأ الخلق الغيبة منهم عنه – سبحانه و تعالى – و قصورهم عن محاضرته و مخاطبته ، و قيام حجاب العظمة عليهم ، فإذا عرفوه بما هو له و توسلوا للقرب بالثناء عليه ، و أقرّوا بالمحامد له ، و تعبدوا له بما يليق بهم ، تأهلوا لمخاطبته ، و مناجاته فقالوا : ﴿ **إياك نعبد و إياك نستعين** ﴾[2].

و زاد **ابن كثير** بقوله : " لمّا أثنى عليه ، فكأنه اقترب ، و حضر بين يدي الله تعالى إيّاك نعبد و إيّاك نستعين " [3] .

و هي كما قال **سيد قطب** : " مفرق طريق بين التحرر المطلق من كل عبودية و بين العبودية المطلقة للعبيد "[4] ، حيث يترفع قلب المؤمن من عبودية الأرض ، و ما فيها إلى عبودية علوية في أعلى السماء أمام الرب الحقيق بالعبادة ، و لهذا لا يتناسب مع المقام أسلوب الغيبة، فهو الآن قد طار بروحه ، وارتفع بها إلى العلياء ووقف أمام ربه يخاطبه خطاب الحاضر ماثل بين يدي رحمته ، يطلب منه مباشرة ، و يتذلل إليه ، و يسند ما قلناه ما جاء في **صحيح الإمام مسلم** من حديث **العلاء بن عبد الرحمان** عن أبيه

---

[1]– ينظر : ضياء الدين بن الأثير . المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر. تحقيق : أحمد الحوفي ، وبدوي طبانة دار نهضة مصر للطباعة و النشر . الطبعة الثانية . الجزء الثاني. ص:183.

[2]– ينظر : محمد بن بهادر بن عبدالله أبو عبدالله الزركشي . البرهان في علوم القرآن .تحقيق : إبراهيم ، أبو الفضل . دار المعرفة الجزء الثالث، ص:367 .

[3]– إسماعيل ، ابن كثير . تفسير ابن كثير . دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع .الجزء الأول ، ص:26.

[4]– سيد قطب . في ظلال القرآن .دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .1971م . الجزء الأول ، ص: 19.

عن **أبي هريرة** رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقول الله تعالى : قسمت الصلاة بيني و بين عبدي نصفين، فنصفها لي و نصفها الآخر لعبدي ، و لعبدي ما سأل ، إذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين، قال الله : حمدني عبدي و إذا قال : الرحمان الرحيم ، قال الله : مجدني عبدي ، و إذا قال : مالك يوم الدين ، يقول المولى : ملّكني عبدي ، و إذا قال إيّاك نعبد و إيّاك نستعين ، قال : هذا بيني و بين عبدي ، و لعبدي ما سأل [1] .

و من الملاحظ أنه لم يعط العبد حرية السؤال إلاّ عند الخطاب المباشر ، في قوله : (إيّاك نعبد و إيّاك نستعين) ، الذي جعله سبحانه وتعالى بينه و بين عبده دون وسائط ، و كأنّ الخطاب المباشر أكثر عمقا في التذلل و إظهار الخضوع و المحبة من جهة العبد ، و أكثر دفعة و عظمة من جهة الرب المعبود – سبحانه و تعالى – ،و هو اتصال روحي بقدرة الله ، يجيب عليه بأعظم ما يتمنى العبد : وهو تحقيق سؤاله .

_ أمّا الموضع الثاني من الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، فقد جاء في سورة البقرة في قوله تعالى :﴿ **يا أيّها الناس أعبدوا ربّكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلّكم تتّقون** ﴾ [2].

فأسلوب النداء المباشر في قوله تعالى : ﴿ **يأيّها الناس** ﴾ و ذلك بعد العديد من الآيات السابقة ، التي جاءت كلّها بضمير الغائب , من مثل قوله تعالى : ﴿ **و من الناس من يقول آمنا بالله** ﴾,و كذا ما بعدها من آيات ،

---

[1]– مسلم بن الحجاج النيسبوري .صحيح مسلم . تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقي . دار الحديث ، القاهرة .كتاب الصلاة . حديث رقم : 38 ، وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة.

[2]– سورة البقرة . الآية : 21 .

وقيل أنّ السرّ العظيم في هذا التحول ، ليكون النداء عاما للناس أجمعين ، حيث أتى به ليفي حاجة ملحة , اقتضاها إيضاح المعنى الدقيق الذي حمله إلينا هذا الالتفات ، وهو عموم حكم النداء لسائر الناس في كل زمان و مكان.

و جاء في سورة الكهف المباركة من هذا اللون من الالتفات قول الله تعالى :﴿ **الحمد لله الذي أنزل الكتاب و لم يجعل له عوجا * قيّما لينذر بأسا شديدا من لّدنه و يبشّر المؤمنين الذين يعملون الصّالحات أنّ لهم أجرا حسنا * ماكثين فيه أبدا * و ينذر الذين قالوا أتخذ الله ولدا* ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا * فلعلّك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا** ﴾ .[1]

الالتفات من صورة الغيبة عن الرسول صلى الله عليه و سلم في قوله تبارك وتعالى : ﴿**على عبده** ﴾ ، إلى صيغة الخطاب في قوله تعالى : ﴿**فلعلك باخع نفسك** ﴾ لقد بدأ السورة بالثناء عليه سبحانه من عباده[12] ،وأعظم درجات الثناء في النفس ثناء الغائب ، و ناسبت هذه البداية أسلوب الغيبة أيضا في قوله تعالى : ﴿**على عبده** ﴾ لما (في عبده من الإضافة المقتضية تشريفه)[3] صلى الله عليه و سلم ، و لكن عن التلطف مع الحبيب المصطفى لمواساة هذا العبد ، لما يجده من حزن و ألم شديدين على صدود الكافرين .

[1] – سورة الكهف ، الآيات من : 1 إلى 6 .

[2]– ينظر : الزمخشري . الكشاف . الجزء الثاني ، ص : 471.

[3] – ينظر:تاج الدين ، الحنفي . الدر اللقيط من البحر المحيط . دار الفكر . الطبعة الثانية . 1983م .الجزء السادس ، ص : 95.

فأسلوب الخطاب هو الأرحب لحمل تلك المعاني العظام ،" تقريرا و توقيفا بمعنى الإنكار عليه "[1] صلى الله عليه و سلم و لكن هذا الإنكار يحمل في طياته الحب و التودد و المواساة و لا شك هو الأجدر و لأبلغ و لد غير .

ب – الالتفات من الخطاب إلى الغيبة :

أول مواضع الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ، جاء في سورة الفاتحة المباركة في قوله تعالى : ﴿ **صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم، و لا الضالين** ﴾[2]،والالتفات في قوله تعالى:﴿ **غير المغضوب** ﴾،وذلك بعد قوله تعالى : ﴿**صراط الذين أنعمت** ﴾، و لو جاءت كسابقها لكانت – غير الذين غضبت عليهم – و لكنه سبحانه عدل عن إسناد الغضب له مباشرة لأغراض بليغة عظيمة ، أوّلها أنّ من أنعم الله عليه فهداه لدين الحق ، فقد سلم من غضب ربه ، و نجا من الضلال في دينه [3]، و لذا نجد الأسلوب القرآني المعجز يترفع عن إسناد الغضب لله صراحة في هذا المقام ، لما فيه من كراهية في النفس بعد إسناد النعمة له سبحانه و تعالى ببناء الخطاب المباشر في (أنعمت) ، فقال تعالى : ﴿ **صراط الذين أنعمت عليهم** ﴾ فصرح الخطاب لمّا ذكر النعمة ثم قال : ﴿ **غير المغضوب عليهم** ﴾، عطفا على الأول لأنّ الأول موضع التقرب من الله بذكر نعمه ، فلمّا صار إلى ذكر

---

[1] – ينظر : أبو محمد ، عبد الحق ، ابن عطية . المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز .تحقيق :عبد السلام، عبد الشافي، محمد دار الكتب العلمية بيروت . الجزء الثالث . ص : 49

[2]– سورة الفاتحة ، الآية :07.

ينظر : محمد بن جرير أبو جعفر الطبري . جمع البيان في تفسير القرآن . دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان . 1986 .الجزء الأول ص:60

[3] – ابن الأثير . المثل السائر .الجزء الثاني . ص:170 .

الغضب جاء باللفظ منحرفا عن ذكر الغاضب ، فأسند النعمة إليه لفظا ، وروى عنه لفظ الغضب تحسنا و لفظا ، و إسناد الغضب هنا لله ، لا يناسب مع ما فات من معنى الرحمة ، و الرضا على العباد و علو العبد بروحه إلى آفاق السماء ، و مواجهة الجليل بأسلوب الخطاب المباشر، و التماس الهدى والرشاد منه سبحانه و تعالى ، و تحننه على عباده بنعمة العطاء ، كلّ هذا يجعل المقام مقام رضا و رحمة ، من المولى العلي القدير، فكيف يناسب إسناد الغضب إليه ؟ .

وهكذا اقتضت حاجة المعنى العدول عن الأسلوب السابق إلى الالتفات ، فغيّر إلى الغائب " وهذه السورة قد انتقل في أولها من الغيبة إلى الخطاب لتعظيم شأن المخاطب ، ثم انتقل في آخرها من الخطاب إلى الغيبة، لتلك العلة بعينها ، و هي تعظيم شأن المخاطب أيضا ، لأن مخاطبة الرّبّ تبارك و تعالى بإسناد النعمة إليه تعظيم لخطابه ، و كذلك ترك مخاطبته بإسناد الغضب إليه تعظيم لخطابه ." [1]

و من مواضع هذا النوع من الالتفات قوله تعالى : ﴿ **قالت ربّي أنّى يكون لي ولد و لم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنّما يقول له كن فيكون** ﴾[2].

الالتفات في قوله تعالى : ﴿ **قال كذلك الله ، يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنّما يقول له كن فيكون** ﴾ بصيغة الغيبة عنه عز و جل ، وذلك بعد خطاب مريم عليها السلام له مباشرة , بقولها (ربّ) و كان حق السياق –

[1] – ابن الأثير . المثل السائر .الجزء الثاني. ص:171 .

[2] – سورة آل عمران : الآية 47 .

كذلك أنا أخلق ما أشاء إذا قضيت أمرا فإنّما أقول له كن فيكون – , ولكن أين هذا من ذاك ؟

لقد غاب لغياب لفظ الجلال بصيغة الغيبة ، شيء معجز لا يقف عن أسرار كنهه غير مبدعه سبحانه و تعالى و إنّما هي محاولات من البشر لعلها تصيب شيئا من الصواب ، قال فيه بعض المفسرين : " يعني بذلك جل ثناؤه قالت مريم ، إذ قالت لها الملائكة إن الله يبشرك بكلمة منه (ربّ أنّى يكون لي ولد) ، من أيّ وجه يكون لي ولد ؟ ، أمن قبل زوج أتزوجه ، و بعل أنكحه , أو تبتدئ في خلقه من غير بعل , و لا فحل , و من غير أن يمسني بشر , فقال الله لها :﴿ **كذلك الله يخلق ما يشاء** ﴾ ، يعني هكذا يخلق الله منك ولدا لك , من غير أن يمسك بشر, فيجعله آية للناس و عبرة , فإنه يخلق ما يشاء و يصنع ما يريد " [1] .

و قوله تعالى : " فقال الله لها " , فيه إشارة إلى وجود الالتفات , لأن الله كان في كلام مريم عليها السلام مخاطبا بقوله (رب) ، ثم أخبر عن نفسه سبحانه و تعالى بطريقة الغيبة في قوله : ﴿ **قال كذلك** .....﴾ ، و نجد أن الموقف موقف إعجاز عظيم في خلقه سبحانه و تعالى، ناسب ظهور لفظ الجلالة جلّ جلاله , ذي القدرة الطلقة ، ومن هنا كان الالتفات إلى الغيبة الأبلغ في هذا المقام ، لحاجة المعنى للاسم الجليل مع ظهور معجزة من معجزات خلقه جلّ جلاله .

[1]– الطبري . جامع البيان . الجزء الثاني ، ص : 188 .

و مما جاء في هذا النوع من الالتفات قوله تعالى : ﴿ **أدخلوها بسلام آمنين* و نزعنا ما في صدورهم من غلّ إخوانا على سرر متقابلين** ﴾[1] .

الالتفات في قوله تعالى : ﴿**و نزعنا ما في صدورهم** ﴾ بصيغة الغيبة في (صدورهم), و هذا بعد مخاطبتهم في قوله تعالى:﴿ **أدخلوها**﴾ بصيغة الأمر, و كان مقتضى الظاهر (نزعنا ما في صدورهم) أو(و ننزع ما في صدورهم) , و لكنه سبحانه أتى بصيغة إشارة على كل متق على مر الزمان " , يقول تعالى﴿**و أخرجنا ما في صدورهم**﴾، هؤلاء المتقين الذين وصف صفتهم من حقد و ضغينة بعضهم لبعض " [2] , فقد جعل المولى عز وجل أمر هذا النزاع ثابت التحقيق باستخدام صيغة الغيبة و الفعل الماضي , وكأنّه قد انقضى و أصبح حكاية تروى ، و هذا الأسلوب أحد أساليب التأكيد في القرآن الكريم .

1-الالتفات بين التكلم والغيبة: و يمكننا تقسيمه إل قسمين :

أ- الالتفات من التكلم إلى الغيبة :

من مواضع الالتفات من التكلم إلى الغيبة ، نجد قوله تعالى : ﴿ **كدأب آل فرعون و الذين من قبلهم كذّبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم و الله شديد العقاب** ﴾[3].

---

[1]- سورة الحجر، الآيتان : 46 ..47.

[2]- الطبري . جامع البيان . الجزء السابع ، ص : 25 .

[3]- سورة آل عمران , الآية : 11 .

مواضع الالتفات في هذه الآية المباركة في قوله تعالى : ﴿ **فأخذهم الله**﴾ , بعد أن كان بلفظ التكلم في قوله تعالى: ﴿ **كذبوا بآياتنا** ﴾ ,و كان مقتضى السياق (فأخذناهم) بدل أخذهم الله .

وسره البلاغي يكمن في قوة لفظ الجلالة الله , و ما يندرج تحته من صفات وأسماء عظام, ليتضح منه نوع الأخذ الذي سيؤخذون به جزاء تكذيبهم آيات الله المتلوة ، فرجع الأسلوب من التكلم إلى الغيبة [1] ، لإظهار الجلالة و تربية المهابة و إدخال الروعة [2] .

وتربية المهابة في نفوس السامعين ، و إدخال الروعة إلى قلوبهم , بارز في سياق الآيات المتقدمة على هذا الموضع ، ففي بدء السورة كان الكلام يدور حول صفات الله و كيفية تصويره الناس في الأرحام فقال : ﴿**هو الذي يصوّركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم** ﴾ [3]، ثم بيّن الله تضرع المؤمنين له ، و طلب الهداية منه , و عدم زيغ القلوب بعد الهداية ، كلّ هذه الأفعال و الأقوال , اتّحدت لتكون هدفا واحدا , تجلى في الآية التي وقع فيها الالتفات ، ألا وهو تربية المهابة و إدخال الروعة .

و مما جاء في هذا النوع قوله تعالى : ﴿ **و لقد كذّبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذّبوا و أوذوا حتّى أتاهم نصرنا و لا مبدّل لكلمات الله و لقد جاءك من نبإ المرسلين** ﴾.[4]

---

[1]– ينظر:عبد الرحمان ، بن مخلوف الثعالبي . جواهر الحسان في تفسير القران . مؤسسة الأعلمي لتوزيع المطبوعات ، بيروت لبنان . الجزء الأول ، ص : 248 .

[2]– ينظر : إسماعيل بن عمر بن كثير أبو الفدا .التفسير. دار الفكر . المجلد الثاني ، ص : 11.

[3]– سورة آل عمران , الآية : 06 .

[4]– سور ة الأنعام , الآية : 34 .

موضع الالتفات هو في قوله تعالى : ﴿ **لكلمات الله** ﴾ , بلفظ الغيبة في الاسم الجليل ، بعد أن كان بلفظ التكلم في قوله : ﴿ نصرنا ﴾ , وكان مقتضى السياق – لا مبدل لكلماتنا – بدل (لكلمات الله) ، و ذكر في فائدته أنّه للإشعار بعلة الحكم .

قال **الألوسي** : " والالتفات في الاسم الجليل – كما قيل – للإشعار بعلة الحكم ، فإنّ الألوهية من موجبات أن لا يغالبه سبحانه أحد في فعل من الأفعال , و لا يقع منه جلّ شأنه خلف في قول من الأقوال، و ظاهر الآية أنّ أحدا غيره تعالى , لا يستطيع أن يبدل كلمات الله , بمعنى أن يفعل خلاف ما دلت عليه , ويحول بين الله عز اسمه و بين تحقيق ذلك . و أمّا أنّه تعالى لا يبدل فلا تدل عليه الآية ، و الذي دلّت عليه النصوص أنّه سبحانه ربما يبدل الوعيد , ولا يبدل الوعد ." [1]

و منه قوله تعالى : ﴿ **إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح العظيم و إن تنتهوا فهو خير لكم و إن تعودوا نعد و لن تغنى عنكم فئتكم شيئا و لو كثرت و أنّ الله مع المؤمنين** ﴾ [2] .

الالتفات في قوله تعالى : ﴿ **وأن الله** ﴾بصيغة الغيبة ، و ذلك بعد قوله تعالى : ﴿ **نعد** ﴾ بصيغة التكلم وكان مقتضى السياق قوله (و أننا) بدل ﴿ **وأن الله** ﴾ , لتناسب ما قبله و لا شك أنّ ظهور لفظ الجلالة هنا يدل

[1]– شهاب الدين السيد محمد الألوسي. روح المعاني :تفسير القرآن و السبع المثاني. دار الفكر، بيروت . 1978 ، المجلد السابع ص : 01.

[2]– سورة الأنفال , الآية : 19 .

على معاني بلاغية عظيمة , لا تأتي بغيره و للوقوف على بعضها نعود إلى كتب التفاسير لنقف على رأي أهل التأويل فيها :

روى **الطبري** رحمه الله : " عن الزهري **(**أن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح **)** قال : استفتح أبو جهل ، فقال اللهم بمعنى حمدا و نفسه أيا كان أفجر لك اللهم , وأقطع للرحم , فأحنه اليوم ، فقال الله الآية "[1] .

و قال **الزمخشري** : " كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر , أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله قالوا اللهم أنصر أعلى الجندين , و أكرم الفئتين و خير القبلتين ، فقال الله الآية " [2] , و أن" تنتهوا " عن الكفر و قتال محمد صلى الله عليه و سلم " فهو خير لكم "و إن تعودوا لمحاربته ، نعد لنصرته عليكم ، و لن تغني و لن تدفع عنكم فئتكم أو جماعتكم شيئا , من الأغنياء و لو كثرت , و أنّ الله مع المؤمنين بالمعونة و النصر[3].

و أيّ كلمة تؤكد هذا النصر , وتلك المعونة أكثر من اسم الله العظيم , الجامع لكل أسمائه و صفاته ، كلّها تؤكد بأنّها في نصر المؤمنين اليوم و كل يوم ، و في هذا تأكيد على موالاة المؤمنين ، و صد للمشركين ، الذين ظنّوا أنّهم هم الغالبون ، و أنّهم أهدى سبيلا من حزب الله المنتصرين .

و منه قوله تعالى : ﴿ **واعلموا أنّما غنمتم من شيء فإنّ لله خمسه و للرّسول و لذي القربى و اليتامى و المساكين و ابن السبيل و إن كنتم**

[1]–الطبري . جامع البيان . الجزء السادس ، ص : 138.

[2]– الزمخشري. الكشاف . الجزء الثاني ، ص : 150 .

[3]– ينظر : ابن عطية . المحرر الوجيز . الجزء الثاني ، ص : 516 .

آمنتم بالله و ما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان و الله على كل شيء قدير .﴾ [1]

الالتفات في قوله تعالى : ﴿ **و الله على كل شيء قدير** ﴾ بصيغة الغيبة، و ذلك بعد التكلم في : ﴿ **أنزلنا على عبدنا** ﴾, و تذييل الآية بلفظ الجلالة يوافق ما بالآية من أحكام تشريعية و يدل دلالة قطعية على وجوب الرضا و الاستسلام التام وأنّ الله غني عن هذه الغنائم و غيرها و لكن ليطهّر قلوب المؤمنين , و يوثق صلاة المحبة و الترابط بين أفرد المجتمع المسلم ، وإلاّ فهو سبحانه "على كل شيء قدير" .

ب – الالتفات من الغيبة إلى التكلم :

ممّا جاء من الالتفات من الغيبة إلى التكلم في سورة النساء المباركة قوله تعالى: ﴿**الذين يبخلون و يأمرون الناس بالبخل و يكتمون ما آتاهم الله من فضله و اعتدنا للكافرين عذابا مّهينا**﴾[2].

الالتفات في هذه الآية المباركة من الغيبة , في قوله تعالى : ﴿ **ما آتهم الله** ﴾ في لفظ الجلالة إلى ضمير التكلم في : " اعتدنا" , و لو سار السياق كسابقه لجاءت الآية – و أعدّ الله للكافرين – و لكن القرآن التفت إلى ضمير التكلم بغرض : " التهويل و التعظيم لأنّ عذاب العظيم عظيم , غضب الحليم وخيم و الجملة اعتراض تذييل مقرر لما قبلها "[3] ، لأنها " نزلت في شأن اليهود الذين كتموا صفة رسول الله صلى الله عليه و سلم " [4]،

---

[4]– سورة الأنفال ، الآية : 41 .

[2] – سورة النساء ، الآية :37 .

[3] – الألوسي . روح المعاني . المجلد الخامس ، ص :30 .

[4]– الزمخشري . الكشاف .الجزء الأول . ص :526 .

وكانوا يأمرون الأنصار بقولهم : " لا تنفقوا أموالكم فإنّا نخشى عليكم الفقر و لا تدرون ما يكون " [1] ، فقد استحقوا من الله هذا العذاب المهين المعد من قبله سبحانه ، " و قد عابهم الله بكتمان نعمة الله و ما آتهم من فضل الغنى والتفاخر إلى الناس " [2] .

و عن النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا أنعم الله على عبده نعمة أحب أن ترى نعمته على عبده " و لهذا تغير الأسلوب إلى صيغة التكلم إشعارا لعظم هذا العذاب المعد لعظم ذنب هؤلاء الطغاة .

و منه قوله تعالى : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا و عملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم* والذين كفروا و كذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم** ﴾ [3]، الالتفات في هذا الموضع بين الآيتين السابقتين من الغائب , في قوله تعالى : ﴿ **وعد الله** ﴾ إلى صيغة التكلم في قوله تعالى : ﴿ **بآياتنا** ﴾, و بلاغته تكمن في نسبة هذه الآيات صراحة إلى الله سبحانه و تعالى , و هذا دليل ساطع لوجوب الإيمان بها , و عظم جرم من كفرها , وهي حجة دامغة على صدق نبوته صلى الله عليه و سلم و استحقاق المكذبين بها للجحيم الذي وعدوا به.

و ممّا جاء أيضا في هذا النوع من الالتفات , قوله تعالى : ﴿ **فإن تولّوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم و يستخلف ربّي قوما غيركم و لا**

[1] – المصدر نفسه الجزء الأول ، ص : 526.

[2]– المصدر نفسه الجزء الأول ، ص : 526 .

[2]– سورة المائدة الآيتان : 09،10 .

تضرّونه شيئا إنّ ربّي على كلّ شيء حفيظ * و لمّا جاء أمرنا نجّينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منّا و نجّيناهم من عذاب غليظ ﴾ [1] .

الالتفات في قوله تعالى : ﴿ **و لمّا جاء أمرنا نجّينا** ﴾ بصيغة التكلم , و ذلك بعد صيغة الغيبة التي كانت في حكاية قوم هود , وكان مقتضى السياق – و لما جاء أمر الله – و لكن هذا التغيير في الصياغة , يشعر بالفصل في الحكاية و توجيه الخطاب للنبي صلى الله عليه و سلم والمؤمنين , تنبيها لهم وتنشيطا لمخيّلاتهم ، " و في التعبير عنه بذلك مضاف إلى ضميره جلّ جلاله , و عن نزوله بالمجيء ما لا يخفى من التضخيم و التهويل " [2]. فدلّ هذا الالتفات إلى نون العظمة على هذا الأمر المهول , الذي لا تقف في وجهه العوارض .

و من الالتفات من الغيبة إلى التكلم في سورة يوسف قوله تعالى : ﴿**ولمّا بلغ أشدّه أتيناه حكما و علما و كذلك نجزي المحسنين** ﴾ [3] .

موضع الالتفات في قوله تعالى : " **أتيناه** " , و كذا في قوله تعالى : ﴿**نجزي** ﴾ بصيغة التكلم , و ذلك بعد الغيبة في الآية التي سبقت هذا , وهي قوله تعالى : "﴿ **الله غالب على أمره** ﴾ و كان مقتضى السياق – و لما بلغ أشدّه أتاه الله حكما و علما – بدل أتيناه ، و لكن من الملاحظ على كثير من مواضع العطاء و الهبة ظهور ضمير التكلم , أو كما يسمى نون العظمة ليعبر عن تعظيم شأن المعطى و المعطي له , و كذلك نون العطاء ، قال

---

[3]– سورة هود , الآيتان : 57 , 58 .

[1] – ابن عطية . المحرر الوجيز . الجزء الثالث . ص : 186 .

[2] – سورة يوسف , الآية : 22.

الزمخشري : " من أحسن عبادة ربّه في شبيبته أتاه الله الحكمة في إكتهاله "[1], جزاء على صلاحه وتقواه ، و قد وهب يوسف عليه السلام أعظم هبة يهبها الله لعباده الأخيار, ألا و هي النبوة , أنّه حباه بها بين أولئك الأقوام .

و قال **ابن عطية** : " يحتمل أن يريد الحكمة و النبوءة و هذا على الأشد الأعلى و يحتمل الحكمة و العلم دون النبوءة .... (و علما) يريد تأويل الأحاديث و غير ذلك و يحتمل أن يريد بقوله (حكما), أي سلطانا في الدنيا , و الحكم بين الناس بالحق، وتدخل النبوءة و تأويل الأحاديث و غير ذلك ."[2]

و أيّا ما كان ذلك فهو عطاء جزيل من لدن وهاب كريم , يستحق تلك الوقفة بذلك الالتفات الجميل .

و مما جاء أيضا في هذا الباب من الالتفات قوله تعالى : ﴿**يمحو الله ما يشاء و يثبّت وعنده أمّ الكتاب * و إن ما نرينّك بعض الذي نعدهم أو نتوفّينّك فإنّما عليك البلاغ و علينا الحساب** ﴾[3].

الالتفات في قوله تعالى: ﴿ **و إن ما نرينّك** ﴾ ، بضمير التكلم ، وذلك بعد قوله تعالى : ﴿ **يمحو الله** ﴾ بصيغة الغيبة ، و لو سار الأسلوب كسابقه لكانت الآية – و إن ما يريك الله – بدل قوله تعالى : ﴿ **نرينك** ﴾ ولكنه سبحانه وتعالى أتى بصيغة التكلم تقربا من رسوله وتشريفا لمقامه الكريم صلى الله عليه وسلم ومناجاة له لأن المقام يتطلب هذا حيث يخبره سبحانه و تعالى بقوله : ﴿ **إن ما نريّنك** ﴾ يا محمد بعض الذي نوعد أعداءك من

---

[3]– الزمخشري . الكشاف . الجزء الثالث ، ص : 310 .

[2]– ابن عطية .المحرر الوجيز . الجزء الثالث ، ص : 231 .

[3] – سورة الرعد , الآيتان : 39 ، 40 .

الخزي و النكال في الدنيا ، ﴿ **أو نتوفينّك**﴾ أي قبل ذلك ﴿ **فإنما عليك البلاغ** ﴾, أي إنّما أرسلناك لتبلغهم رسالة الله و قد فعلت ما أمرت به ﴿**وعلينا الحساب** ﴾ [1]، فكان ضمير التكلم هو الأنسب في الإيضاح لهذه الأمور والأقرب في التلطف مع الرسول صلى الله عليه و سلم .

و قال **الرازي** : " وهذا رجوع من الغيبة إلى الحضور ، و التقدير أنّه لمّا ثبت أنّه الإله الواحد , و ثبت أنّ المتكلم بهذا الكلام إله , فحينئذ يحسن منه أن يعدل من الغيبة إلى الحضور، ويقول : (فإيّاي فارهبون) , و فيه دقيقة أخرى , و هي أنّ قوله : ﴿ **فإيّايّ فارهبون** ﴾ يفيد الحصر وهو أن لا يرهب الخلق إلاّ منه وأن لا يرغب إلاّ في فضله و إحسانه " [2] ، و قال **أبو السعود** : " الالتفات من الغيبة إلى التكلم لتربية المهابة ، و إلقاء الرهبة في القلوب " [3].

1-الالتفات بين التكلم والخطاب: و يمكننا تقسيمه إل قسمين :

أ - الالتفات من التكلم إلى الخطاب :

من مواضع هذا النوع من الالتفات نجد قول الله تعالى : ﴿**و إذ أخذنا ميثاقكم و رفعنا فوقكم الطور خذوا ما أتيناكم بقوة و اذكروا ما فيه لعلكم تتقون** ﴾[4] .

---

[1] – ينظر : ابن عطية . المحرر الوجيز . الجزء الثالث ، ص : 318 .

[2]– فخر الدين ، الرازي . التفسير الكبير . دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان . الجزء العشرون . ص : 48 ، 49 .

[3]– محمد بن محمد العمادي أبو السعود . إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم . دار إحياء التراث العربي ، بيروت . الجزء الثالث . ص : 270 .

[4] – سورة البقرة , الآية : 63 .

و الالتفات في قوله تعالى :﴿ خذوا ﴾ بصيغة الخطاب المباشر , وذلك بعد صيغة التكلم في قوله تعالى : ﴿وإذ أخذنا﴾ ,و كان مقتضى السياق – و قلنا خذوا ما أتيناكم – قال فيه **بن جرير** : " سأل أبو جعفر اختلاف أهل العربية ، في تأويل ذلك فقال بعض نحوي أهل البصرة , هو مما استغنى بدلالة الظاهر المذكور مما ترك ذكره له , و ذلك أنّ معنى الكلام و رفعنا فوقكم الطور و قلنا لكم خذوا ما أتيناكم لقوة و إلا قذفناه عليكم " [1].

و لمّا كان الخطاب المباشر له تأثير قوي على المخاطب و السامع , آثره سبحانه على أسلوب الحكاية و حذف فعل القول , قال المفسرون (خذوا) على إرادة القول[2]، أي خذوه بجد و عزيمة كاملة و عدول عن التغافل والتكاسل[3] ، و لا يعني هذا المقام حقه من القوة المطلوبة ووجوب الالتزام بالأمر إلا أسلوب الخطاب , و لهذا عدل بالأسلوب من التكلم إلى الخطاب .

و جاء أيضا في هذا النوع من الالتفات في سورة الأنعام المباركة , قال الله تعالى : ﴿**قل أغير الله أبغي ربّا و هو ربّ كل شيء لا تكسب كلّ نفس إلاّ عليها و لا تزر وازرة وزر أخرى ثمّ إلى ربّكم مرجعكم فينبّئكم بما كنت فيه تختلفون** ﴾[4].

الالتفات في قول الله (ثم إلى ربكم مرجعكم) بصيغة الخطاب , وذلك بعد قوله تعالى : ﴿ **أغير الله أبغي ربّا** ﴾ بصيغة التكلم ، و كان مقتضى

---

[1] – الطبري . جامع البيان . الجزء الأول . ص : 258 .

[2]– ينظر: الزمخشري . الكشاف . الجزء الأول ، ص : 286 ، و ينظر : أبو السعود . إرشاد العقل السليم. الجزء الأول . ص : 133 .

[3]– ينظر : الرازي . التفسير الكبير . الجزء الثالث . ص : 108 .

[4]– سور ة الأنعام ,الآية : 164 . [4]

السياق – ثم إلى ربي مرجعكم – بدل قوله تعالى : ﴿**إلى ربّكم** ﴾ ، أراد المولى العلي القدير أن يفاجئهم بحقيقة قد تعيدهم إلى رشدهم و توقظ بعض قلوبهم , التي لم تصل إلى درجة الموت , لتنقذها من براثين الشيطان و أعوانه و لذا جعل أمر الرجوع مسبوقا بكلمة (ربّكم) المسندة إلى ضميرهم أي ثمّ إلى ربّكم أيّها الناس مرجعكم و مصيركم و منقلبكم [1] ، فطلبا لإيقاظ القلوب أتى هذا المقطع مغايرا لما قبله و كذا تلوين للخطاب و توجيهه إلى الكلّ لتأكيد الوعد وتشديد الوعيد , أي إلى مالك أموركم رجوعكم يوم القيامة [2] ، فكان الالتفات إلى الخطاب هو الأنسب لما ذكرناه .

و من قوله تعالى ما جاء في سورة الأعراف المباركة : ﴿ **و كتبنا له في الألواح من كلّ شيء موعظة و تفصيلا لكل شيء فخذها بقوة و أمر قومك يأخذوا بأحسنها سأوريكم دار الفاسقين** ﴾[3].

الالتفات في قوله تعالى : ﴿ **فخذها** ﴾ بصيغة الخطاب المباشر, وذلك بعد أن كان الأسلوب للمتكلم في قوله تعالى : ﴿ **و كتبنا** ﴾ و كان مقتضى الظاهر – فقلنا له خذها – و لكنه سبحانه نقلنا إلى جو الأمر المباشر دون تقديم , ليمثّل لنا مشهدا هو غاية في الإجلال و المهابة و يؤكد على وجوب الالتزام بكل ما من شأنه أنّه أتى من قبله سبحانه جلّ جلاله , فيوقظ فينا الأسماع , و يشدنا إلى عالم الحزم و الجد حيث لا مجال لغيره في هذا المقام .

---

[1]– ينظر : الطبري . جامع البيان . الجزء الخامس . ص : 84 .

[2]– أبو السعود . إرشاد العقل السليم . الجزء الثاني ص : 230 .

[3]– سورة الأعراف ، الآية : 145 .

قال فيه **أبو السعود** : " على إضمار قول معطوف على كتبنا ، أي فقلنا خذها بقوة بجد و عزيمة ، و قيل هو بدل من قوله **(و خذ ما أتيتك)** والضمير للألواح أو لكل شيء ، لأنّه بمعنى الأشياء أو للرسالة أو للتوراة " [1].

و قال فيه **الطبري** : " يقول تعلى ذكره و قلنا لموسى إذ كتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة و تفصيلا لكل شيء خذ الألواح بقوة " [2]، و لهذه القوة التي يطلبها المقام , جاء الالتفات إلى الخطاب و عدل عن ضمير المتكلم في قلنا.

و من هذا اللون من الالتفات ما جاء في قوله تعالى : ﴿ **قل يا أيّها الناس إن كنتم في شكّ من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله و لكن أعبد الله الذي يتوفاكم و أمرت أن أكون من المؤمنين** ﴾[3].

الالتفات في قوله تعالى : ﴿ **يتوفاكم** ﴾ بصيغة الخطاب ,و ذلك بعد صيغة التكلم في قوله تعالى : ﴿**و لكن أعبد**﴾ , و كان مقتضى هذا التكلم استمراره ليكون المقطع – و لكن أعبد الله الذي يتوفاني بدل قوله تعالى:﴿**يتوفاكم**﴾, فلماذا أثّرت صيغة الخطاب في هذا المقام ؟ .

قال في ذلك **الرازي** : " فإن قيل : ما الحكمة في ذكر المعبود الحق في هذا المقام بهذه الصفة و هي قوله : **(**الذي يتوفاكم**)**؟ , قلنا : فيه وجوه .

---

[1] – أبو السعود . جامع البيان . الجزء الأول ، ص : 295 .

[2] – الطبري . جامع البيان . الجزء السادس . ص : 40 .

[3] – سورة يونس , الآية : 104 .

الأول : يحتمل أن يكون المراد أنى أعبد الله الذي خلقكم أولا ثم يتوفاكم ثانيا ثم يعيدكم ثالثا ، و هذه المراتب الثلاثة قد قررناها في القرآن مرارا ، و أطوارا فهنا اكتفى بذكر التوفي منها لكونه منبّها على البواقي .

الثاني: أنّ الموت أشدّ الأشياء مهابة ، فخص هذا الوصف بالذكر في المقام ليكون أقوى الزجر و الردع.

الثالث : أنّهم لمّا استعجلوا نزول العذاب ، قال تعالى : ﴿ **فهل ينتظرون إلاّ مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إنّي معكم من المنتظرين * ثمّ ننجي رسلنا و الذين آمنوا ..**﴾[1]، فهذه الآية تدل على أنّه تعالى يهلك أولئك الكفار و يبقي المؤمنين و يقوي دولتهم , فلمّا كان قريب العهد بذكر هذا الكلام لا جرم قال هاهنا " ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم , وهو إشارة إلى ما قرره و بيّنه في تلك الآية , فكأنه يقول : أعبد ذلك الذي وعدني بإهلاكهم و بقائي " [2] ,و عبادة من كان كذلك لا يستنكرها ذو فطرة صحيحة [3] و في تخصيص التوفي بالذكر متعلقا بهم مالا يخفى من التهديد و الوعيد [4]، هذا ما حدا بالأسلوب أن يغير مجراه من التكلم في (أعبد) إلى الخطاب في (يتوفاكم).

[1]– سورة يونس , الآية : 102 .103 .

[2] –الرازي . التفسير الكبير . الجزء السابع عشر ، ص : 172 .

[3] –ينظر: الطبري . جامع البيان . الجزء الحادي عشر . ص : 121 .

[4] –ينظر: أبو السعود . إرشاد العقل السليم . الجزء الثاني . ص : 521 .

ب – الالتفات من الخطاب إلى التكلم:

جاء في هذا النوع من الالتفات ما جاء في قوله تعالى : ﴿ **قل من ينجيكم من ظلمات البرّ و البحر تدعونه تضرعا و خفية لئن أنجيتنا من هذه لنكوننّ من الشّاكرين** ﴾ [1].

الالتفات في قوله تعالى : ﴿ **لئن أنجانا من هذه لنكونن من المشركين**﴾ بصيغة التكلم و ذلك بعد مخاطبتهم بقوله تعالى : ﴿ **من ينجيكم**﴾ إلى قوله تعالى :﴿ **تدعونه** ﴾ , و كان مقتضى هذا الخطاب ظهور فعل القول أي : قائلين لئن أنجيتنا .[2] لقد بدأت الآية المباركة بخطاب للنبي صلى الله عليه و سلم كعادة القرآن عند الإعراض عن مخاطبة الملحدين مباشرة ، وجعله بواسطته _عليه أفضل الصلاة و التسليم _ حسيسا و معنويا أي : ﴿**قل يا محمد لهؤلاء العدلين بربهم الداعين لك إلى عبادة أوثانهم ، من الذي ينجيكم من ظلمات البر و البحر إذا ضللتم فيه فتحيرتم ، فأظلم عليكم الهدى و المحجة ، و من ظلمات البحر إذا ركبتموه فأخطأتم فيه المحجة فأظلم عليكم نية السبيل فلا تهتدون له غير الله , الذي مفزعكم حينئذ بالدعاء تضرعا منكم إليه ، و إستكانة جهرا و خفية** ﴾ [3].

و لذا قال **الرازي** فيه : " و لفظ الآية يدل على أنّه عند حصول هذه الشدائد يأتي الإنسان بأمور : أحدها : الدعاء ، وثانيها التضرع ، و ثالثها :

---

[1]– سورة الأنعام , الآية : 63 .

[1] – ينظر : أبو السعود . إرشاد العقل السليم . الجزء الثاني . ص : 162 . [2]

[2] – الطبري : جامع البيان . الجزء الخامس . ص: 140 ، 141 . [3]

الإخلاص بالقلب ، وهو المراد من قوله (خفية) و رابعها : التزام الاشتغال بالشكر و هو المراد من قوله "[1].

و لهذا فصيغة التكلم هي الأنسب في هذا المقام لينبههم سبحانه بأنّه عالم السر و أخفى و لهذا أظهر سبحانه ، ما أعلنوه و ما أخفوه بالصيغة التي صدرت عنهم في الحالتين ليكون قولهم هذا حجة دامغة عليهم تقتضي التسليم و الإذعان ، و هذا ما يرمي إليه أسلوب القرآن الكريم ، مع هذه الفئة الضالة ، أعاذنا الله من هذا المصير، و مع كافة من يوسوس لهم الشيطان بالضلال و البعد عن الهداية .

و من هذا اللون من الالتفات جاء قول الله تعالى : ﴿**قل يا أيّها الناس إن كنتم في شكّ من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله و لكن أعبد الذي يتوفاكم ، و أمرت أن أكون من المؤمنين** ﴾[2].

الالتفات المقصود في هذا الفصل في قوله تعالى : ﴿ **و أمرت أن أكون** ﴾ بصيغة التكلم بعد صيغة الخطاب في (يتوفاكم) و لكن لأنّ الأمر بالإيمان خاص به صلى الله عليه و سلم التفت الأسلوب إلى صيغة التكلم في (أمرت) ، و ذلك يدل على أنّ دين الله من الوضوح و البيان , ما يجعله غني عن الإكراه فيدخل فيه من يدخل دون جبر و لكن يتسابق إليه العقلاء بعد اقتناعهم به الاقتناع التام , بأنّه الحق الذي لا بديل له , و من أصرّ على كفره فهو كالأنعام بل أظل سبيلا لو سار السياق كسابقه لجاء المقطع (وأمرتم أو أمرنا أنا و أنتم أن نكون من المؤمنين – و لكن هذا بخلاف المقصود ,

---

[3]– الرازي . التفسير الكبير . الجزء الثالث العشر . ص : 21 . [1]

[2] – سورة يونس, الآية : 104 .

حيث قال الله تعالى : ﴿ **لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت و يؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها و الله سميع عليم** ﴾ [1] , و جاء في تفسير **ابن كثير** : " و أمرت أي بأن أكون من جنس من آمن بالله و أخلص له الدّين بالأعمال الصالحة ليحصل في القلب نور الإيمان و المعرفة " [2] , و هذا الخبر العظيم لا يدخل فيه المخاطبون بقوله تعالى : ﴿ **يتوفاكم** ﴾ ، لذلك عاد الأسلوب مرة أخرى إلى صيغة التكلم و كان هذا الالتفات البليغ .

و منه قوله تعالى في سورة هود المباركة :﴿ **واستغفروا ربّكم ثمّ توبوا إليه إنّ ربّي رحيم ودود** ﴾[3].

الالتفات في قوله تعالى : ﴿ **إن ربي** ﴾ بصيغة التكلم و ذلك بعد مخاطبتهم بقوله تعالى : ﴿ **واستغفروا ربكم ثم توبوا** ﴾ وكان حق الظاهر – إن ربكم رحيم ودود – تماشيا مع ما سبقه فلماذا جاء الالتفات إلى التكلم بعد ذلك الخطاب ، و ما مناسبة كل صيغة لمقامها ؟ أضاف سبحانه كلمة ربّ إليهم في قوله : ﴿ **واستغفروا ربكم** ﴾ ، لأن أمر الاستغفار من تلك الآثام التي اقترفوها تخصهم وحدهم لينبههم سبحناه إلى أنّه قريب من عباده المستغفرين التائبين ، فإسناد هذه الكلمة – المحببة إلى شعيب – إلى ضمير خطابهم لما عساه يزيل تلك الجفوة التي فاضت بها نفوسهم المريضة

[1]– سورة البقرة , الآية : 256 .

[2] – ابن كثير. التفسير الكبير . الجزء الثاني . ص : 425 .

[3]– سورة هود ، الآية : 90 .

لعلهم ينتهون و ينتبهون إلى ربوبيته سبحانه عليهم و يستشعروا فضائله التي تغمرهم .

فقال : ﴿ **استغفروا ربّكم أيّها القوم من ذنوبكم بينكم و بين ربكم ، التي أنتم عليها مقيمون من عبادة الآلهة و الأصنام , و بخس الناس حقوقهم في المكاييل و الموازين ثم توبوا إليه** ﴾ [1], مبينا لهم أنّ سبق الكفر و المعصية منهم لا ينبغي أن يمنعهم من الإيمان و الطاعة , لأنّه تعالى ربّي الذي أعرفه بأنّه رحيم ودود يقبل الإيمان و التوبة من الكافر و الفاسق , لأنّ رحمته لعباده و حبه لهم . [2]

وهذا هو القرآن يعدّ لكلّ مقام مقالا فعند الاستغفار و التوبة التي تخصهم وحدهم أضاف كلمة (رب) إلى ضمير خطابهم ليهز نفوسهم , يقربهم من الله زلفى , و عندما أراد أن يخبرهم بما يعهده في ربه أسند هذه الكلمة إلى نفسه لتكون دليلا على ثبات اليقين بها في نفسه المؤمنة و شاهدا على صدق كلامه ، وهذا شعيب نبي الله الذي سمي خطيب الأنبياء لحسن مراجعته لقومه [3] , يستنجد بالالتفات ليوضح مكنون نفسه و يفصح عمّا بها ، وهكذا اتضح أنّ الالتفات إلى التكلم حقق أغراضا بلاغية لا غنى للمقام عنها.

[1] – ينظر : الطبري . جامع البيان . الجزء السابع . ص : 63 ، 64 .

[2]– ينظر: الرازي . التفسير الكبير . الجزء الثامن عشر . ص : 49 .

[1]– ينظر : محمد ، الشوكاني . فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير .دار المعرفة للطباعة والنشر ،بيروت . الجزء الثاني . ص : 518 .

المصادر:

1- القرآن الكريم ، برواية ورش عن نافع .

2- ابن منظور . لسان العرب .دار صادر ،بيروت ، لبنان . الطبعة الأولى 1410 هـ. الجزء الثاني عشر.

3- أبو عبد الله ، الجعفي ، البخاري . صحيح البخاري .المطبعة العامرة ، القاهرة . 1315 هـ . كتاب الآذان.

4- أحمد، مطلوب. مصطلحات النقد العربي. مكتبة لبنان، بيروت، لبنان.2001م .

5- محمود بن عمر أبو القاسم الزمخشري . الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل دار المعرفة بيروت . الجزء الأول و الثاني و الثالث.

6- ضياء الدين بن الأثير . المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر .تحقيق : أحمد الحوفي ، و بدوي طبانة دار نهضة مصر للطباعة و النشر . الطبعة الثانية . الجزء الثاني.

7- محمد بن بهادر بن عبدالله أبو عبدالله الزركشي . البرهان في علوم القرآن . تحقيق : إبراهيم أبو الفضل .دار المعرفة .الجزء الثالث .

8- إسماعيل ، ابن كثير . تفسير ابن كثير . دار الفكر للطباعة والنشر و التوزيع .الجزء الأول و الثاني .

9- سيد قطب . في ظلال القرآن .دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .1971م . الجزء الأول.

10- مسلم بن الحجاج النيسبوري .صحيح مسلم . تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقي . دار الحديث ، القاهرة .

11- تاج الدين ، الحنفي . الدر اللقيط من البحر المحيط . دار الفكر . الطبعة الثانية . 1983م .الجزء السادس .

12- أبو محمد ، عبد الحق ، ابن عطية . المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز .تحقيق :عبد السلام، عبد الشافي، محمد دار الكتب العلمية بيروت . الجزء الثالث .

13- محمد بن جرير أبو جعفر الطبري . جمع البيان في تفسير القرآن . دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت لبنان . 1986 .الجزء الأول و الخامس و السادس و السابع و الحادي عشر .

14- عبد الرحمان ، بن مخلوف الثعالبي . جواهر الحسان في تفسير القران . مؤسسة الأعلمي لتوزيع المطبوعات ، بيروت لبنان . الجزء الأول .

15- إسماعيل بن عمر بن كثير أبو الفدا .التفسير . دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع . المجلد الثاني .

16- شهاب الدبن السيد محمد الألوسي. روح المعاني :تفسير القرآن والسبع المثاني. دار الفكر، بيروت . 1978 م . المجلد الخامس والسابع .

17- فخرالدين ، الرازي . التفسير الكبير . دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان . الجزء الثالث و الجزء الثالث عشر و الجزء السابع عشر و الجزء الثامن عشر و الجزء العشرون .

18- محمد بن محمد العمادي أبو السعود . إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم . دار إحياء التراث العربي ، بيروت . الجزء الأول و الثاني و الثالث .

19- محمد ، الشوكاني . فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير .دار المعرفة للطباعة والنشر ،بيروت . الجزء الثاني .